علاقة اللفظ باللفظ: العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

❖ هل ثمة علاقة بين صوت الكلمة ومعناها؟

أولا. العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها:

ثبت عن علماء اللغة الأقدمين أن: «اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»، ولهذا فقد درسوا أصوات اللغة العربية وبينوا لكل صوت صفته ومخرجه، كما بينوا ما يوحي إليه من دلالة ومعنى، من خلال بيان مناسبة هذه الحروف للمعاني التي تدل عليها، وما يحمل كل حرف من قيمة تعبيرية[1]، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف المعبرة ذات الدلالة، فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص مادام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له جرس وإيقاع، وبما أن لغتنا موسيقية فإن العربي يعتمد على سمعه في الحكم على النص اللغوي، ولذلك فهو مرهف الحس يستريح إلى نوع من الكلام لحسن وقعه، وينفر من آخر لنبو جرسه[2].

وإثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط وهو حرف واحد في كلمة، كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب وهو ثنائي فقط، أو ثنائي ألحق به حرف أو أكثر، أو ثلاثي مجرد ومزيد، أو رباعي أو خماسي أو سداسي على طريقة العرب مشتق أو مقيس[3].

وقد تحدث ابن جني عن هذه الظاهرة تحت مسمى (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، فقال: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته»[4].

❖ هل للصوت في حال البساطة علاقة بالمعنى؟

1. **الصوت في حال البساطة:** الحرف الواحد -وهو جزء من كلمة- يحمل صوتا معينا، ثم يوحي بالمعنى المناسب، سواء أكان في أول اللفظ، وسطه، أم آخره.

أ. أول الكلمة: مما وقع في أول الكلمة: صَعِدَ وسَعِدَ.

جعلوا الصاد؛ لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يُرَى، وهو الصعود في الجبل والحائط... وجعلوا السين لضعفها، لما لا يظهر ولا يشاهد حسًّا، إلّا أنه مع ذلك فيه صعود الجد، لا صعود

1 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، دار العلم للملايين، ط1: 1379هـ، ص142

2 فقه اللغة، د. حاتم صالح الضامن، مكتبة د. مازن عبد القادر المبارك (جامعة بغداد): 1411هـ، ص59

3 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، ص142

4 الخصائص، ابن جني، ج2 ص154

الجسم... فجعلوا الصاد لقوتها فيما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس، وإن لم تره العين[5].

ومن ذلك قولهم: خَضِمَ وقَضِمَ؛ فالخضم لأكل الرطب؛ كالبطيخ والقثّاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها[6].

ب وسط الكلمة:

ومما وقع في وسط الكلمة قولهم: الوسيلة والوصيلة[7]، والصاد أقوى صوتًا من السين، لما فيها من الاستعلاء؛ والوصيلة أقوى معنًى من الوسيلة، وذلك أن التوسل ليس له رباط الوصل، والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء، ومماسَّته له، كاتصال أعضاء الإنسان ببعضها، ونحو ذلك، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسِّل جزءًا أو كالجزء من المتوسَّل إليه، وهذا واضح؛ فجلعوا الصاد، لقوتها، للمعنى الأقوى، والسين لضعفها، للمعنى الأضعف[8].

ت آخر الكلمة:

مما وقع آخر الكلمة: النضح والنضخ، فالنضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح؛ قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه[9]...

كل هذه الأمثلة التي سبقت تومئ إلى وجود العلاقة الذاتية الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، أو بعبارة أدق: بين صوت الحرف البسيط وقيمته البيانية.

❖ هل للصوت في حال التركيب علاقة بالمعنى؟

1. الصوت في حال التركيب:

أثبتنا في ما سبق القيمة التعبيرية للصوت البسيط في الكلمة، وسنثبت هذه القيمة نفسها للصوت المركب وهو ثنائي، أو ثنائي ألحق به حرف أو أكثر، أو ثلاثي مجرد ومزيد، أو رباعي أو خماسي أو سداسي على طريقة العرب مشتق أو مقيس، هذه القيمة التي تكمن في وجود

5 الخصائص، ابن جني، ج1 ص553

6 المصدر نفسه، ج1 ص549

7 الوصيلة ما يوصل به الشيء، الوسيلة الواسطة والذريعة.

8 الخصائص، ابن جني، ج2 ص162

9 الخصائص، ابن جني، ج2 ص160

تناسب بين اللفظ أو الصوت ومدلوله، وتتضمن دراسة الصوت في حال تركيبه، نوعين من الألفاظ، ألفاظ تحاكي أصوات الطبيعة، وألفاظ تنشأ من الاشتقاق.

أ. المحاكاة الصوتية:

تعود هذه الظاهرة لدى أكثر القائلين بها إلى تفسير نشأة اللغة الإنسانية بمحاكاة الأصوات الطبيعية؛ كتقليد الإنسان أصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطبيعة، أو تعبيره عن انفعالاته الخاصة، أو عن الأفعال التي تُحْدِث عند وقوعها أصواتًا معينة.

وقد أقر ابن جني هذه الظاهرة اللغوية وأبدى إعجابه بها، فيقول: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات؛ كدوي الريح، وهزيم الرعد، وخرير الماء، ونهيق الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل»[10].

وقد نبَّه الخليل وسيبويه إلى مثل ذلك، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته، قال الخليل: «كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صَرْصَرَ».

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: «إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النَّقَزَان، والغَلَيَان والغَثَيَان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال»، وأضاف ابن جني تعليقا على مضى: «تجد المصادر الرباعية، المضعَّفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة والقرقرة[11]»[12].

ولا ريب أن في مراعاة اللين أو القوة، والخفة أو الشدة، والهمس أو الجهر، في التعبير عن هذه الطائفة من المعاني التي سبقت الإشارة إليها، دليلًا واضحًا على المحاكاة الإنسانية المقصودة لأصوات الظواهر المعبر عنها.

وقد لا يحتاج المتأمل إلى كبير عناءٍ حتى يلمح العلاقة الطبيعية بين الألفاظ الموضوعة لمحاكاة الأصوات:

---

10 الخصائص، ابن جني، ج1 ص48

11 عدو للناقة فيه شدة.

12 الخصائص، ابن جني، ج2 ص155

1. التي تصدر من الحيوانات، فالعصفور يزقزق، والحمام يهدل، والقمريّ يسجع، والهرة تموء، والكلب ينبح، والعجل يخور، والذئب يعوي ... إلخ. وإذا قوبلت مصادر هذه الأفعال: الزقزقة، والهديل، والسجع، والمواء، والنباح، والخوار، والعواء، بالأصوات التي تسمع من الحيوانات ثبت بأنها تقارب كثيرًا أصول تلك الأصوات.
2. ومثل ذلك في هزيم الرعد، وحسيس النار، وخرير الماء، في حكاية أصوات الطبيعة...
3. وفي شهيق الباكي، وتأوه المتوجع، وحشرجة المحتضر، وأنين المريض؛ وكرير المختنق، وتمتمة الحائر، وغمغمة الغامض، في حكاية الأصوات المعبرة عن الانفعالات الإنسانية المختلفة...
4. وفي قدّ القميص، وقطّ القلم، وقطف الثمرة، وقطع الغصن، وقضم اليابس، وقطم العود، وفري الدم، وفرث البطن، وفرد الباب، وفرس العنق، وفرض الفضة، وفرض الخشبة، وفرع الرأس، في حكاية الأصوات الصادرة عن إحداث القطع[13].

ب. الدلالة المعجمية:

اتضح مما سبق القيمة الدلالية للصوت عند محاكاته لأصوات الطبيعة المتعلقة بمظاهر الطبيعة، أو تعبيره عن انفعالاته الخاصة، والانتقال من نطاق المحاكاة الصوتية إلى بطون المعاجم التي تعج بالألفاظ التي تحمل أصواتها قيما تعبيرية، هذه الألفاظ تتنوع صيغها بين الثنائية والثلاثية والرباعية، وقد حاول علماء اللغة إيجاد جامع معنوي مشترك بين الصورة الأصلية للفظ (الجذر) وصورتها المزيدة، وأكدوا احتواء زيادة المادة الصوتية على معنى إضافي مع احتفاظها بالمعنى الأصلي القديم[14].

ومن يستقرأ كلام العربية بإمعان، يجد أن لمعظم موادها أصلًا يرجع إليه كثير من كلماته، مثل مادة "فل" وما يثلثها، فهي تدور حول معنى الشق والفتح، مثل: فلح، فلج، فلع، فلق، فلد، فلى، ومثل ذلك مادة "قط" وما يثلثها، تقول: قطَّ، قطع، قطر، قطف، قطن، وكلها بمعنى الانفصال.

والمتأمل في العمل الذي قام به ابن فارس في معجمه «مقاييس اللغة» حيث بناه على ما يصطلح عليه بالأصول التي تتكون من حرفين أو ثلاثة أحرف ثم يربطها بمعنى مشترك بين كل الألفاظ التي تنتمي إلى تلك الأصول، والمراد بالأصل البناء الذي يدل عليه معنى عام، بحيث

13 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، ص152

14 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، ص153

يجمع كلمات تشترك معه في الحروف الأصلية التي هي حروف المادة[15]، وفكرة الأصول والمقاييس هي ما يسميه بعض اللغويين: "الاشتقاق الأكبر"، الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات[16]، جاء في الصاحبي: «أجمع أهل اللغة -إلا من شذ منهم- أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجنّ مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدُلاَّن أبداً على الستر»[17].

فها هو ابن فارس يرد أصل "باب القاف والطاء وما يثلثهما" إلى معنى القطع، فيراه في "قطع" الذي يدل على إبانة شيء من شيء، وفي "قطف" الذي يدل على أخذ ثمرة من شجرة، وفي "قطل[18]" الذي يدل على قطع الشيء، وفي "قطم[19]" الذي يدل على قطع الشيء أيضًا[20]، فالعين والفاء واللام والميم جاءت أحرفًا زائدة على الأصل الثنائي "قط" فخصَّصَت" معنى القطع ونوَّعته بين الصرم والإبانة والأخذ، وردَّدته لأصواتها بين درجات الشدة والغلظة في إحداث القطع[21].

واعتبر الباحثون المعاصرون عند اطلاعهم على أمثال هذه الفروق الدقيقة التي أوضحها اللغويون المتقدمون، أن موقع الحرف الثالث الزائد على الأصل الثنائي تنويعًا للمعنى، وتحديدًا للفارق، يغلب أن يكون تذييلًا في آخر الكلمة، وإن جاء أحيانًا حشوًا في وسطها، أو تصديرًا في أولها.

فمثال الحرف المزاد في وسط الكلمة بين حرفيها الأصليين: شلق من شقّ، وفرق من فَقَّ، وقَرَطَ من قطَّ، وقرص من قص، وشرق من شق، ولحس ولهس من لس.

وأما الحرف المزاد في صدر الكلمة، فمن أمثلته: رفت من فت، ولهب من هب، ورفض من فض، ولمس من مس، وفطح وبطح: من طح، ونذل من ذل، وغلف من لف[22].

كل ما مضى من الأمثلة السابقة على اعتبار المضعَّف الثلاثي ثنائيًّا، قال ابن دريد: «الثنائي الصحيح لا يكون حرفين البتة إلّا والثاني ثقيل أي: مضعف، حتى يصير على ثلاثة أحرف؛

15 فقه اللغة، مفهومه وموضوعاته وقضاياه، إبراهيم الحمد، ص383

16 مقاييس اللغة، ابن فارس، ج1 ص3

17 الصاحبي في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، ص35

18 قطل: قطع الجذع من أصله

19 قطم: قطع الشيء بأسنانه

20 مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5 ص101، مادة: (ق، ط)

21 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، ص156-157

22 دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح، ص158-159

اللفظ ثنائي والمعنى ثلاثي، وإنما سُمِّيَ "ثنائيًّا" للفظه وصورته، فإذا صرت إلى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة، والثاني حرفين مثلين أحدهما مدغم في الآخر، نحو: "بَتَّ يبت بتًّا" في معنى قطع، وكان أصله "بتت"، فأدغموا التاء في التاء فقالوا: بتَّ، وأصل وزن الكلمة فعل، وهو ثلاثة أحرف، فلما مازجها الإدغام رجعت إلى حرفين في اللفظ، فقالوا: بَتَّ، فأدغمت إحدى التاءين من الحروف المعجمة»[23].

❖ هل يمكن أن تؤثر قوة اللفظ وضعفه على المعنى؟

ثانيا. قوة المعنى من قوة اللفظ:

عقد ابن جني بابا آخر سماه "باب في قوة اللفظ لقوة المعنى"، وبين أنه فصل من العربية حسن، ذكر فيه مجموعة من الألفاظ التي يتقوى معناها بتغيير في صيغتها، ومنه:

باب فعل وافعوعل: نحو خشن واخشوشن: فمعنى خشن دون معنى اخشوشن؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو. ومنه قول عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا وتمعددوا: أي اصلبوا وتناهوا في الخشنة.

وكذلك قولهم: **أعشب** المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا: **اعشوشب**. ومثله خلق واخلولق[24].

ومثله باب **فعل وافتعل**، نحو **قدر واقتدر**، فاقتدر أقوى معنى من قولهم: قدر هو محض القياس، قال الله سبحانه: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[25]؛ فمقتدر هنا أوفق من قادر؛ من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ. وعليه قول الله -عز وجل-: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[26] وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر، وذلك لقوله -عز اسمه-: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾[27]؛ أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها، صغر الواحد إلى العشرة ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها، لم تحتقر إلى الجزاء عنها، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة؛ ولذلك قال -تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[28] فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى

23 جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط1: 1987م، ج1 ص53

24 خلق: كان خليقا وجديرا. ويقال: اخلولق السحاب: استوى وصار خليقا للمطر.

25 سورة القمر: 42

26 سورة البقرة: 286

27 سورة الأنعام: 16

28 سورة مريم: 90-91

هذه الغاية البعيدة المترامية، عظم قدرها، وفخم لفظ العبارة عنها، فقيل: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة...».[29]

باب **فعيل وفَعَّال**: من ذلك قولهم: رجل جميل، ووضيء، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا: وضَّاء، وجمَّال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه[30].

باب **فُعَال مِن فَعِيل**، وفيه من تكثير اللفظ لتكثير المعنى، بالعدول عن معتاد حاله وذلك في فعال معنى ليس في فعيل، نحو طُوَال، فهو أبلغ من طويل، وعراض أبلغ من عريض، وكذلك خفاف من خفيف، وسراع من سريع[31].

والملاحظ أن علاقة اللفظ بالمعنى قوة وضعفا ترجع إلى أمرين:

1. **قوة اللفظ لقوة المعنى**، وهو ما يمثله قولهم: (قدر، واقتدر) لما ترى من قوة (اقتدر) لشدة النطق بالتاء.
2. **تكثير اللفظ لتكثير المعنى**، وهو ما يمثله قولهم: أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا: اعشوشب.

وإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء، أوجبت القسمة له زيادة المعنى به، وليست الكلمات سواء في دلالتها على المعنى، فمن الكلمات ما هي أصدق في وصف الشيء من كلمات أخرى، وألصق بالمعنى، وأكثر تمثيلا له أمام العيون[32]، وهذا ما يتفق مع فكرة: "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"، فزيادة الفعل بتضعيف عينه (فَعَّلَ) تفيد المبالغة في معنى الفعل، أو التعدية، وزيادته بالهمزة (أفعل) تدل على تعديه، وزيادة الألف (فاعل) تدل على المشاركة.

أ. بوهنة محمد

29 الخصائص، ابن جني، ج3 ص268-269

30 الخصائص، ابن جني، ج3 ص269

31 فقه اللغة، د. حاتم صالح الضامن، ص61

32 الخصائص، ابن جني، ج3 ص271